# عندما تستحيل التكنولوجيا إلى إيديولوجيا

أحمد أبركان(*)

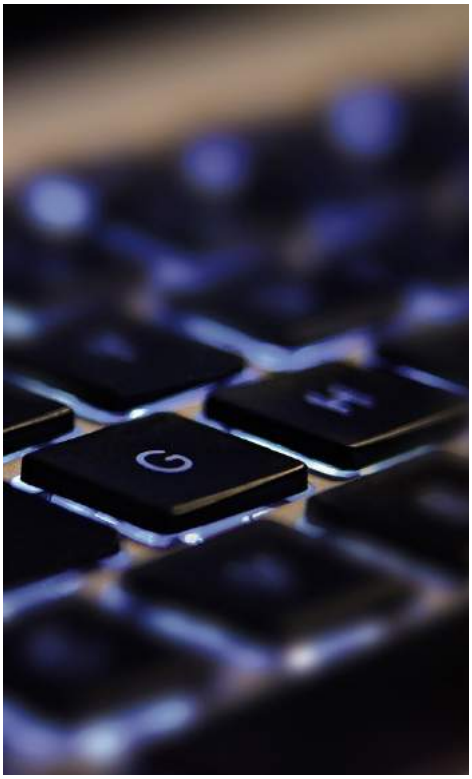

## تقديم:

### الطفرة التكنولوجية والانفجار المعلوماتي:

عرف منتصف القرن الماضي تقريبا بداية زحف ما تم الإجماع والتواطؤ على تسميته بـ «عصر الثورة التكنولوجية» أو «عصر ثورة المعلومات». وكأن التاريخ يعيد نفسه، فمثلما تسربت الآلة البخارية إلى دنيا الناس كرأس حربة للانتقال من مجتمع الزراعة إلى مجتمع الصناعة في بداية عصر التصنيع، تسللت تكنولوجيا المعلومات والاتصالات إلى حياتنا، لتحدث ثورة المعلومات التي قادتنا إلى مجتمع

(*) جامعة محمد الأول، وجدة، المغرب. البريد الإلكتروني:
aberkanmed@yahoo.fr

المعلومات. فمجتمع المعلومات أو مجتمع المعرفة يعتبر وريثا للمجتمع الصناعي. وتقوم أسس مجتمع المعرفة على ثالوث مهم: عتاد الكمبيوتر (Hardware)، والبرمجيات (softwore)، وشبكات الاتصالات (Information Society)[1]. بشيء من التفصيل يمكن الجزم بأن «ثورة المعلومات» ما زالت تتواصل من خلال ما يمكن أن ننعته بـ «الدائرة النشطة»، التي تتميز بـ:

**أ-** تطور هائل في تكنولوجيا الكمبيوتر والاتصالات.

**ب-** نجم عن هذا التطور تدفق هائل غير مسبوق في المعلومات.

**ج-** هذا التدفق المستجد لم يكن ليمر دون أن تستغله وتستثمره تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، من أجل مضاعفته ونشره.

**د-** نتج عن هذا التدفق المنهمر من المعلومات تباين واختلاف بَيْن بني البشر لدى تفاعلهم معه، بنفس تباين واختلاف انعكاس المعلومات المستجدة عليهم، فكانت النتيجة أن اتسعت الفجوة بين البشر في مكان النمطية والقولبة التي فرضتها مبادئ مجتمع الصناعة[2]. معنى هذا أن الهوة التي كانت تفصل الدول المتقدمة عن الدول المتخلفة في فترة ما قبل عصر الانفجار المعلوماتي تضاعفت بشكل غير مسبوق، الأمر الذي أضحى يهدد كثيرا من دول العالم الثالث بأن تصبح على هامش التاريخ بأن لا تجد لها مكانا في عالم صار يقاس بمقاييس مخالفة لتلك التي عرفها بعيد الثورة الصناعية.

وهذا ما تكلم عنه كثير من الخبراء، أمثال العالم الاجتماعي البرازيلي النابغة المتعدد اللغات Fernando Henrique Cardoso الذي دَرَّس في الجامعات الفرنسية والبريطانية والأمريكية، والذي ترجمت مؤلفاته إلى أكثر من لغة؛ وقد تولى رئاسة الجمهورية الفدرالية للبرازيل من ٠١ يناير ١٩٩٥ إلى ٠١ يناير ٢٠٠٣. يقول هذا السوسيولوجي المبرز: (إننا اليوم أمام ظاهرة جديدة: رخاء البعض لا يرتبط بفقر البعض الآخر، هناك ما يشبه استقلالا ذاتيا في النظام الإنتاجي بفضل الثورة التكنولوجية، لدرجة

(١) عنايت، راجي: **ديمقراطية جديدة لمجتمع المعلومات**. دار العين للنشر، القاهرة، (ط ١)، (١٤٣١ هـ/٢٠١٠م)، (بتصرف شديد عن ص٣٣)

(٢) عنايت، راجي: **ديمقراطية جديدة لمجتمع المعلومات**. (مرجع سابق)، (بتصرف طفيف عن: ص ص ٣٣-٣٤)

أن فقـر إفريقيـا، وإلى حـد مـا أمريـكا اللاتينيـة وبعـضِ أجـزاء آسـيا، لم تعـد لـه نفـس الوظيفـة في رخـاء «الشـمال».

إن محـرك التاريـخ لم يعـد اسـتغلالَ اليـد العاملـة أو المـوارد الطبيعيـة، إننـا اليـوم بصـدد تهميـش عـدد ضخـم مـن السـكان لعـدم قدرتهـم عـلى الانخـراط في الطريـق الرئيـسي للتاريـخ، ويتعلـق الأمـر بسـكان إفريقيـا، وخصوصـا السـاحل، وأجـزاءَ هامـةٍ مـن أمريـكا اللاتينيـة، وبالخصـوص منطقـة الكرايبـي، وأمريـكا الوسـطى، ومناطـقِ آسـيا الجنوبيـة الآهلـة بالسـكان)[1]. ويسترسـل Cardoso قائـلا بنظـرة تشـاؤمية تعتـصر لهـا القلـوب مـرارة لاسـيما لـدى مـن ينتمـي إلى واحـد مـن هـذه العـوالم التـي ذكرهـا، والتـي أضحـت مهـددة بـأن لا تجـد لهـا مكانـا في عـالم صـارت الكلمـة الأولى والآخـرة فيـه لمـن يكتسـب ناصيـة الصناعـة التكنولوجيـة وهندسـتها، يقـول: (نحـن اليـوم أمـام

(1) Cardoso.F.M : «postface» In, **les technologies d'information et de communication dans le sud : la mondialisation forcée,** in revue tiers-monde, n° 138, avril/mai, 1994, pp 444-445.

نقـلا عـن اليحيـاوي، يحيـى: **الوطـن العـربي وتحديـات تكنولوجيـا الإعـلام والاتصـال.** القنيطـرة، المغـرب، البوكيـلي للطباعـة والنـشر والتوزيـع، (ط١)، (١٩٩٧)، (ص ٧).

**إننـا اليـوم أمـام ظاهـرة جديـدة: رخـاء البعـض لا يرتبـط بفقـر البعـض الآخـر، هنـاك مـا يشـبه اسـتقلالا ذاتيـا في النظـام الإنتاجـي بفضـل الثـورة التكنولوجيـة، لدرجـة أن فقـر إفريقيـا، وإلى حـد مـا أمريـكا اللاتينيـة وبعـضِ أجـزاء آسـيا، لم تعـد لـه نفـس الوظيفـة في رخـاء «الشـمال».**

وضعيـة مأسـاوية لـدول لم تنجـح في شـغل أقـل هامـش مـن السـوق الـدولي، ولم يعـد لاسـتغلالها أهميـة بالنسـبة للشـمال. إن رفاهيـة «الشـمال» لم تعـد مرتبطـة باسـتغلال اليـد العاملـة الزهيـدة الثمـن أو بوفـرة المـوارد الطبيعيـة لـدول الجنـوب كـدول إفريقيـا ودول أخـرى غيرهـا) [٢].

لقـد انقلبـت الموازيـن واختلـت المعايـير، وتهـاوت الأطروحـات التـي كانـت تربـط الشـمال بالجنـوب، أصبـح العـالم الثالـث اليـوم غـير مرغـوب فيـه، لا في يـده العاملة، ولا في مـوارده الطبيعية ومـواده الأولية التي كانت إلى عهد قريب تشـكل عصب الصناعة الغربيـة وقوامهـا، وكانـت تشـكل معها ذاك الخيـط الدقيـق الرابـط بـين شـمال جنـوب.

(٢) اليحيـاوي، يحيـى: **الوطـن العـربي وتحديـات تكنولوجيـا الإعـلام والاتصـال.** (مرجـع سـابق) (ص٧).

لقد أحدثت التكنولوجيا الابتكارية بمراحلها المختلفة وتداعياتها المتغيرة «زلزالا» في النظم الاجتماعية والاقتصادية لمجتمعات المعمورة، حتى صرنا نشكك في أن يكون لدول العالم الثالث نصيب ولو بسيط في مجتمع المعلومات، نظرا لتشابكه وتعقد مسالكه. ولتوضيح الفكرة أكثر يَفْضُل بنا أن نسرد المراحل الثلاث التي يمر بها مجتمع المعلومات حسب تصور المفكر المستقبلي الياباني «يونيجي ماسودا» الذي سهل لليابان اتخاذ المسلك الأصوب والسبيل الأقوم، لاتباع المسلسل الأصح لولوج مجتمع المعلومات. وتتلخص هذه المراحل الثلاث فيما يلي:

١- المرحلة الأولى: وفيها تؤدي التكنولوجيا المعينة العمل نفسه الذي كان الإنسان يضطلع به سابقا؛
٢- المرحلة الثانية: وفيها توفر هذه التكنولوجيا إمكاناتٍ في العمل لم يُقَدَّر للإنسان أن يقوم بها في أي وقت؛
٣- المرحلة الثالثة: بناء على ما حدث في المرحلتين الأوليين، فإن البنى الاجتماعية والاقتصادية القائمة ستشهد تحولا وتغيرا فتستحيل إلى نظم جديدة غير مسبوقة[1].

لكن أخشى ما نخشاه ألا تتعدى دول العالم الثالث عتبة المرحلة الأولى، ليس لعلة مشهودة في طاقاتها البشرية، ولكن لخلل في نظمها الاجتماعية وتركيبتها الاقتصادية وتوجهاتها السياسية؛ فما بالك ببقية المراحل الأخرى وهي أعقد، لا لشيء إلا لأنه لم يكن بمقدور هذه الدول أن تستوعب المرحلة الصناعية وأن تجد من ثم مكانة لها في مجتمع الصناعة، بله أن يصير لها موضع في مجتمع المعلومات الذي يعتبر بديلا معقدا في تركيبته للمجتمع الصناعي. ويحاول المفكر يونيجي ماسودا أن يستعرض الآليات والميكانيزمات التي يتحول وفقها مجتمع الصناعة إلى مجتمع المعلومات فيما يأتي:

١- بلوغ مرحلة التسيير الذاتي (الأوتوماتية أو الأتمتة) «automating»، بوصفها آخر مرحلة لتطور المجتمع الصناعي.. في هذه المرحلة تقوم تكنولوجيا المعلومات، أي تكنولوجيا الكمبيوتر والاتصالات، بالعمل نيابة عن الإنسان.
٢- الوصول إلى مرحلة إنتاج المعارف اعتمادا على التكنولوجيا المتقدمة، أي تطوير عمل الكمبيوتر بشكل يصير معه مُتَجَاوِزاً دوره كحاسب إلكتروني، وبشكل يمكنه من أن يتيح للمعلومات والمعارف

(١) عنايت، راجي: **ديموقراطية جديدة لمجتمع المعلومات**. **(مرجع سابق)** (بتصرف عن ص ٣٤).

الداخلة إليه أن تتفاعل، لتلد معارف جديدة، لم يكن حتى للإنسان الذي زوده بها أن يعرفها. بمعنى آخر، أن يصير بإمكان هذه التكنولوجيا الجديدة أن تضخم العمل العقلي، بصورة لم يكن، ولن يكون، بإمكان العقل البشري أن يدركها.

٣- تبعا للمرحلتين السابقتين، تمكنت التكنولوجيا المتطورة من اكتشاف وابتكار نظم جديدة، وليس فقط معارف جديدة؛ الأمر الذي يستلزم جملة من التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية[١].

## أولا- انصهار الإعلام في السياسة

يمكن فهم العلاقة بين الإعلام والسياسة من زاويتين اثنتين، إحداهما سلبية إذا أمكننا جيدا فهم حقيقة اللعبة السياسية من خلال توظيف وسائل الإعلام، والثانية تبدو إيجابية أو شبه إيجابية، في حال عدم التباسها بدهماوية (أو غوغائية) «demagogy» أو مرجعية مبيتة، وهذا أمر ينظر إليه بتحفظ. فعن الزاوية الأولى، لا أحد ينكر في زمننا هذا أن وسائل الإعلام قد أضحت قادرة على امتلاك كل ما من شأنه أن يسهل لها سبل النفاذ إلى كل الوجهات التي تمكنها من نشر وتعميم أفكار ومفاهيم التأثير في الآخرين، قصد تغيير الاتجاهات والقناعات وإخضاع النفوس وتنميط الذوق[٢].

لذا يمكننا فهم دور وسائل الإعلام السياسي على أنها أداة للهيمنة الإيديولوجية. فالطبقة الحاكمة تعول على الاختراق والتثقيف الإيديولوجي للطبقات الخاضعة من خلال الهندسة الذهنية لضمان هيمنتها، هذه الهيمنة التي تتحقق لما تُقْدم فئة عريضة من السكان، ليس فقط بقبول المفاهيم والأفكار التي تتبناها الطبقة السياسية المهيمنة، بل بالتسليم بأن هذه المفاهيم والأفكار هي حصيلة ونتاج لإجماع المجتمع. مما يعني من جهة، إلغاء وإقصاء كل الأفكار والمفاهيم المضادة وخلع صفة الشرعية عنها وتجريدها منها، وتهميش أي أطر إيديولوجية بديلة، ومن جهة أخرى، الإقرار بأن الإطار الإيديولوجي المهيمن

(١) عنايت، راجي: **ديموقراطية جديدة لمجتمع المعلومات**. (مرجع سابق) (بتصرف عن ص ٣٥).

(٢) انتصار، عباس إبراهيم: **العولمة والإعلام الإسلامي**. ضمن بحوث وأوراق عمل لعدة مؤلفين، تقديم مثنى حار ث الضاري، تمهيد طه أحمد الزيدي: الإعلام الإسلامي، الواقع والطموح، عمّان، الأردن، دار الفجر للنشر والتوزيع، بغداد، ودار النفائس للنشر والتوزيع، (ط١)، (١٤٢٧ هـ/٢٠٠٧م)، (بتصرف عن ص ١٢٩)

هو الإطار الوحيد القابل للتفكير فيه[1].

من هذه الزاوية لا يمكننا إلا أن نسلم بأن الإعلام -خاصة الغربي منه، والأمريكي بوجه أخص- صار يقوم بدور محوري في تنميط الأذواق، وتغيير الاتجاهات والقناعات، وتشكيل الرأي العام؛ كيف لا وقد أضحى (أي الإعلام) أول مفهوم «معولم» بالمعنى الاقتصادي لما بشّر بنشوء القرية الكونية التي تختزل المسافات، وتخترق الحدود، بل تلغيها، ولا تكترث بالخصوصيات الثقافية، بل تبتلعها. وفي هذا الصنيع، مما لا يخفى على عاقل، انتهاك سافر لسيادة البلدان، وغصب فاضح لهوياتها. كل هذا تسبب في الزج بالعالم في آلية حتمية تيسِّر للمالكين لتقنيات الاتصال والمسيطرين عليها من فرض مفاهيم التأثير في الآخرين[2].

ولعل هذا ما عناه الرئيس الأمريكي السابق ريتشارد نيكسون عندما تكلم عن إنجازات الولايات المتحدة الأمريكية في ميادين الإعلام قائلا: (إن الولايات المتحدة الأمريكية تخوض معركة الأفكار، وفي أحوال كثيرة جدا، وهي غير مسلحة، ومن أكثر البرامج السياسية فاعلية والتي تقدمها الولايات المتحدة الأمريكية على الإطلاق هو دعمها لإذاعة أوربا الحرة، وينبغي لنا كشف السبل لاستغلال التكنولوجيا والمعلومات الحديثة والحواسب الآلية والأقمار الصناعية وأجهزة الفيديو لخوض معركة الاحتكار)[3].

باختصار شديد، لقد أضحت الوظيفة الأساسية٨٢ للإعلام الغربي، والأمريكي على وجه التحديد، هي بيع المشاهدين إلى المعلنين؛ أو بيع جمهور من المستخدمين للمعلنين، على حد تعبير المفكر الأمريكي Noam Chomsky «نعوم تشومسكي»[4]، مما تطلب من الإعلام الدخول في علاقة هي غاية في التعقيد والتشابك والتشعب مع السياسة؛ غدا على إثرها الإعلام

(١) القرعاوي، حارث: **معالجة نقدية لصناعة الخبر السياسي في وسائل الإعلام الجماهيرية**. مقال ضمن مقالات أخرى صدرت في سلسلة كتب المستقبل العربي (٦٩)، بيروت، لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية، تحت عنوان: الإعلام وتشكيل الرأي العام وصناعة القيم، تحرير وتقديم عبد الإله بلقزيز، (بتصرف عن ص١٥٥).

(٢) انتصار عباس إبراهيم: **العولمة والإعلام الإسلامي**. (مرجع سابق) (بتصرف عن ص ١٢٩).

(٣) تيارات، شومسكي: **عولمة الإعلام**. ترجمة كامل عويد العامري، المنتدى، العدد ١٤، عمان، منتدى الفكر العربي، (١٩٩٧)، (ص ١٤٥).

(٤) حمودة، عبد الحليم: **الإنترنيت إعلام ضد الإعلام**. بيروت، لبنان، دار الهادي، (ط١)، (١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م)، (ص٤٦).

**ومن أكثر البرامج السياسية فاعلية والتي تقدمها الولايات المتحدة الأمريكية على الإطلاق هو دعمها لإذاعة أوربا الحرة، وينبغي لنا كشف السبل لاستغلال التكنولوجيا والمعلومات الحديثة والحواسب الآلية والأقمار الصناعية وأجهزة الفيديو لخوض معركة الاحتكار).**

عنصرا رئيسا في الملعب السياسي لما صار يحسم النتيجة «نتيجة المعركة» سلفا لصالح القوى الغربية قبل تحققها، وذلك عن طريق الأساليب المختلفة للفبركة[1].

هذا عن الزاوية السلبية في العلاقة بين الإعلام والسياسة.

أما عن الزاوية الثانية، التي قد تكون إيجابية أو شبه إيجابية في هذه العلاقة، فتتلخص في اندماج تكنولوجيا المعلومات والاتصالات مع العمل السياسي، ما أدى إلى إحداث آليات وأساليب عمل جديدة لممارسة الديمقراطية والعمل السياسي، فيما يمكن أن ينعت بـ «ديمقراطية تكنولوجيا المعلومات والاتصالات»، أو «الديمقراطية الإلكترونية أو الرقمية»، التي تعد حصيلة تكامل بين جوهر وقيم الديمقراطية -بوصفها مفهوما سياسيا واجتماعيا- وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات -بوصفها آلية ووسيلة لتعزيزها-.

وقد تم تأويل هذا الانصهار أو التزاوج من زوايا مختلفة من بينها: أن تكنولوجيا المعلومات والاتصالات أصبحت أداة اتصال مباشرة بين الحاكم والمحكومين، وأن الأفراد صاروا يتمتعون بدور فعال ومؤثر عبر استخدام تكنولوجيا المعلومات والاتصال في الرقابة على الأداء الحكومي وكذا الضغط على الحكومة، وأنها صارت طرفا مشاركا في مكافحة الفساد، والتأثير في الرأي العام كما في صناع القرار السياسي[2].

لكن إذا كان تسخير أدوات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات الرقمية في إنتاج وجمع وتصنيف وتحليل المعلومات والبيانات يحقق نوعا من الديمقراطية الرقمية، فهذا لا يعني أننا إزاء ولادة

(١) انتصار، عباس إبراهيم: **العولمة والإعلام الإسلامي**. (مرجع سابق)، (بتصرف عن ص ٢٣٢).

(٢) حسين عبد المطلب الأسرج: **تكنولوجيا المعلومات والاتصالات كآلية لتعزيز الديمقراطية وحرية التعبير**. واشنطن، مركز المشروعات الدولية الخاصة، غرفة التجارة الأمريكية، (بتصرف) (ص ٢).

نوع جديد من الديمقراطية، بل يعني ممارسة الديمقراطية بالمفهوم المتعارف عليه، لكن بأدوات وآليات جديدة، الأمر الذي يتطلب من الممارسين لهذا النوع من الديمقراطية أن يكونوا متمتعين سلفا بوجود ديمقراطية تقليدية، حتى يسهل تحويلها إلى رقمية[1].

## ثانيا- تكنولوجيا الإعلام في خدمة الإيديولوجيا

شاعت في عصرنا هذا جملة ألفاظ ومصطلحات شابها كثير من الخلط والخبط من قبيل: الحضارة والمجتمع الرقمي، ومجتمع الإعلام، والديمقراطية الرقمية، والمجتمع القائم على الشبكات... وكلها مصطلحات تحيل إلى فكرة واحدة هي سلطان التقنية، وهي تسلم أسماءها للمجتمعات التي تعتمد تطبيقها. ونحن إذا سلمنا بأن لا وجود لأي مجتمع من دون إيديولوجيا، يتحتم علينا في المقابل أن نسلم بأن التكنولوجيا قد استحالت في زمننا هذا إلى إيديولوجيا، لكنها إيديولوجيا ليست كالإيديولوجيات الأخرى، بما أنها تعمل جاهدة على منح تقنيات الاتصال سلطة معيارية مبالغا فيها بشكل يمكنها من أن تصبح العامل الأول في تنظيم المجتمع وإعطائه معناه[2].

أقول هذا مع الاعتراف في الوقت نفسه بأنه نادرا ما يتم التفكير في العلاقة التي تربط التكنولوجيا بالإيديولوجيا، لاسيما وأن لكل منهما مساراته وتوجهاته ومسالكه وطرق اشتغاله، أو كما يبدو لنا على الأقل... وإن كتب لهما الالتقاء فمن باب الاستثناء لا غير.

**شاعت في عصرنا هذا جملة ألفاظ ومصطلحات شابها كثير من الخلط والخبط من قبيل: الحضارة والمجتمع الرقمي، ومجتمع الإعلام، والديمقراطية الرقمية، والمجتمع القائم على الشبكات... وكلها مصطلحات تحيل إلى فكرة واحدة هي سلطان التقنية، وهي تسلم أسماءها للمجتمعات التي تعتمد تطبيقها.**

لكننا لو قلبنا الأمر على أوجهه المختلفة لبدت الحقيقة واضحة جلية ولزال الغبش الذي ظل يكتنفها في اعتقاد كثير

(١) (المرجع نفسه)، (بتصرف) (ص ٣).

(٢) دومينيك وولتو: **الإعلام ليس تواصلا**. النسخة الإلكترونية المترجمة،بيروت،لبنان،دار الفارابي،(ط١)،(٢٠١٢)،(ص٤٥،٤٤).

مـــن النـــاس. فالعلاقـــة بـــين التكنولوجيا والإيديولوجيا قائمـــة لا محالة، وهي تفرض نفســـها. لكـــن الإشـــكال المطـــروح ليس يكمـــن في واقعيـــة هذه العلاقـــة بقدر ما يرتبط بطبيعتها... إذ الـــذي يبدو لنا غريبا وغير عادي في ذات العلاقة هو (اســـتصدار الإيديولوجيا لماهيـــة التكنولوجيا، والتحايل عليهـــا «في المختبر كما في الســـوق» بغرض الالتفـــاف عـــلى تطبيقاتهـــا، أو تحويـــل وظائفها، أو ارتهـــان أدواتها)[1]. معنى هذا أنـــه لا يمكننا التنكـــر للوظيفة أو الوظائف الإيديولوجيـــة التـــي تحرك كل مســـتجد تكنولوجـــي. وليس هناك مـــن دليل أوضح على هـــذا الحكم مـــن مســـألة الاحتكار الـــذي خضعت لـــه الاتصـــالات من طرف الدولـــة، بـــدءا مـــن اخـــتراع الهاتف إلى حـــدود الثمانينيـــات مـــن القـــرن الماضي تحـــت ذرائع شـــتى مـــن قبيـــل: الأمن القومـــي، وإعداد الـــتراب الوطنـــي...[2].

هـذا الـكلام يقودنـا مباشرة إلى إثـارة فكـرة الاختـراق الإعلامـي الـذي مـورس مـن طـرف السـلطة إن بشـكل مبـاشر أو غـير مبـاشر، بشـكل مبـاشر في فـترة الخمسـينيات مـن القـرن المـاضي، زمـن النـدرة الإعلاميـة والاحتـكار الإعلامـي مـن طـرف الصحافـة وبعـض وسـائل الإعـلام المرئيـة والمسـموعة، حيـث كانـت السـلطة هـي المصـدر الوحيـد للرسـالة الإعلاميـة تـسرِّب مـن خلالهـا تصورهـا وتمثلهـا وإيديولوجيتهـا السـائدة. معنـى هـذا أن الرسـالة الإعلاميـة كانـت وقتهـا مسـلطة بقـوة الدعايـة والدهماويـة (الديماغوجيـا) وسـيادة الفكـر الواحـد؛ وكانـت تُلتقـط مـن طـرف الجماهـير كـما تبثهـا آلـة الإعـلام بحرفيتهـا.

هـذا عـن الصـورة المبـاشرة للاخـتراق الإعلامـي خـلال فـترة الخمسـينيات، أمـا عن صورتـه الـلا مبـاشرة في زمننـا هـذا، زمـن الطفـرة التكنولوجيـة، والانفجـار المعلومـاتي، فـإن سياسـة الإكـراه وفـرض الأمـر الواقـع لم تعـد ذات كبـير جـدوى أمـام تضاعـف سـبل الاختيـار في حقـل الصناعـة الإعلاميـة مـن صحافـة مكتوبـة، إلى فضائيـات، وأقـمار اصطناعيـة، وشـبكات عنكبوتيـة... ومـا إلى ذلـك مـن الوسـائط التـي تدخـل في تركيبـة الترسـانة الإعلاميـة التـي طلعـت علينـا بهـا ريـح العولمـة. فقـد جـاءت هـذه التركيبـة مرفقـة بإيديولوجيـا جديـدة لا تسـتفز الشـعور بشـكل مبـاشر، ولا تصـدم التمثـلات بطريقـة صريحـة واضحـة؛ بـل

(١) اليحيـاوي، يحيـى: **في الإعـلام والسياسـة والأخـلاق**. الربـاط، المغـرب، منشـورات عـكاظ(ط١)، (٢٠١٥)، (ص ٨٣).

(٢) (المرجع نفسه)، (ص ٨٣-٨٤).

وجدت قابليتها لدى الجماهير، إما بحكم الانبهار، وإما بسبب استرسال الإعلام الرسمي في الدعاية والتضليل[1].. وما كان لهذا الاختراق الإعلامي الجديد أن يحقق مساعيه لولا تعويله شبه المطلق على ثالوث: الصورة، والصوت، والكلمة... إنها القوة الناعمة، البديل الإيجابي لدى الغرب لمفهوم القوة الخشنة. وإذا تساءلنا عن ماهية القوة الخشنة، فإننا لن نتوه كثيرا في إيجاد الجواب المناسب: إنها القوة التي (تجد ترجمتها العسكرية بالحرب المباشرة، وترجمتها السياسية بالمضايقات بالهيئات الدولية والإقليمية، وترجمتها الاقتصادية بسبل الضغط والمقاطعة والحصار، وهكذا)[2].

ولقد حدد الأدميرال جوزيف ناي (Joseph Nye) عميد جامعة هارفارد، ورئيس مجلس الاستخبارات الوطني الأمريكي، ومساعد وزير الدفاع في عهد إدارة كلينتون، مفهوم القوة الناعمة في قوله: (القدرة على الاستقطاب والإقناع... إذ بما أن القوة الخشنة تكمن في القدرة على الإجبار والإكراه، المتأتية من القوة العسكرية للدولة، أو من تفوق قدراتها الاقتصادية، فإن القوة الناعمة تتأتى من جاذبيتها الثقافية أو السياسية)[3]. فالقوة الناعمة توظِف وتسخر طرقا وأساليب تتحلى بالرخاوة، عمادها نشر الأفكار والمعلومات، وتقديم الدعم لقنوات البث الإذاعي والإرسال التلفزي، وتيسير سبل ترويج سلع وخدمات وبرامج معلوماتية، هادفة من راء هذا الصنيع خلخلة وزلزلة ثقة الناس في طبيعة النظام القائم، أو مسخ صورة القائمين عليه، ليغيروا وجهتهم حيال صانعي القوة الناعمة والمالكين لنواصيها، بوصفها «أي القوة الناعمة، السبيل الأنجع والحل الأمثل للخلاص.

فما كان ينتزع من طرف الغرب فيما سلف من الزمن في حملاته الاستعمارية التوسعية بالقوة والإكراه والجبر والغصب، صار يُحصد اليوم بفضل أساليب القوة الناعمة المتمثلة في الإعلام والسلط الرمزية بأسلوب لين مرن استقطابي. إنها حرب القرن الحادي والعشرين، حرب أعنف من سابقاتها، حرب خفية بغيضة قوامها

(١) اليحياوي، يحيى: **حصار الإعلام، دراسة في المشهد الإعلامي العربي المعاصر**. الرباط، المغرب، منشورات عكاظ، (٢٠٠٦)، (ص ٥٣-٥٤-٥٥).

(٢) اليحياوي، يحيى: **في القابلية على التواصل، التواصل في محك الإنترنيت وعولمة المعلومات**. الرباط، المغرب، منشورات عكاظ، (٢٠١٠)، (ص ١٥٩).

(٣) (المرجع نفسه)، (ص ١٥٩).

**فالقوة الناعمة توظِف وتسخر طرقا وأساليب تتحلى بالرخاوة، عمادها نشر الأفكار والمعلومات، وتقديم الدعم لقنوات البث الإذاعي والإرسال التلفزي، وتيسير سبل ترويج سلع وخدمات وبرامج معلوماتية، هادفة من راء هذا الصنيع خلخلة وزلزلة ثقة الناس في طبيعة النظام القائم.**

الخدعة والمكر، إنها العولمة المدججة بترسانة تكنولوجية عملاقة، وبقطائع مؤسساتية، وبرؤيا جديدة قلبت طبيعة العلاقات الدولية رأسا على عقب، واعتدت على آدمية الإنسان وتفرده وهويته وإنسانيته[1]، وذلك بسعيها الجارف إلى تحقيق الأحادية القطبية التي لا ترى ضيرا في أن تدوس بأقدامها على الخصوصيات الثقافية لأمم الدنيا كلها بمحاولة طمس معالمها بل واجتثاثها من أصولها.

على أنه تم السعي أحيانا إلى مزج القوة الخشنة بالقوة الناعمة لا سيما منذ وصول أوباما للسلطة، وهو ما أطلق عليه Joseph Nye اسم «القوة الذكية» تداركا لخطأ عدم القدرة على المزاوجة بينهما فيما سبق في حالتي الحرب والسلم على السواء. ومن الأمثلة الواضحة على هذه المزاوجة، ما شهدناه وعلمناه من حرب أمريكا وحلفائها على العراق وأفغانستان، إذ إنه في الوقت الذي كانت فيه الآلة المدمرة في إطار القوة الخشنة تسعى إلى أبعد مداها في الهدم والتدمير والتقتيل والمحاصرة فضلا عن مشاهد الاغتصاب والمداهمة، كانت القوة الناعمة تعمل عملها بموازاة مع ذلك محيلة إلى عملية التنكيل التي تعرض لها قتلى أمريكيون بمشارف مدينة الفلوجة بالعراق، من غير أن تستطيع قوة الاحتلال انتشال أطرافهم أو حتى تحديد الجناة الضالعين في ذلك. وفي الوقت الذي عمدت فيه قوات التحالف إلى مداهمة البيوت وزرع الرعب في ساكنتها من طرف القوة الخشنة، تذرعت القوة الناعمة بأن ساكني هذه البيوتات هم إرهابيون، أو خارجون عن القانون، أو متسترون عن الجناة. فالصمت الذي كانت تتعمده القوة الناعمة «خاصة منها الشبكات التلفزيونية الأمريكية»، ومنطق التستر الذي سلكته أثناء فترة الحرب على

(١) اليحياوي، يحيى: **في القابلية على التواصل**... (مرجع سابق)، (بتصرف شديد، عن ص١٦٠-١٦١)

شتى التصرفات الوحشية واللاإنسانية التي مارستها الآلة الحربية للقوة الخشنة أو الصلبة على كل من العراق وأفغانستان، ليس له سوى تفسير واحد: تواطؤ القوة الخشنة مع القوة الناعمة على إذلال وتركيع شعوب وحكومات من غير ذنب اقترفته سوى أنها رفضت الانصياع لإرادة الإدارة الأمريكية ولم تعلن مباركتها لها، واختارت في المقابل سبيل المقاومة والدفاع عن نفسها، بدل الخضوع والخنوع والانصياع.

بناء على ما سبق يحق لنا إصدار الحكم التالي: إن التكنولوجيا لم تسلم في أي فترة من فترات التاريخ من أن تكون حمالة إيديولوجيا، بل ربما استحالت هي نفسها إلى إيديولوجيا. يقول (Herbert Marcuse) هربرت ماركوزه، وهو فيلسوف وعالم اجتماع أمريكي من أصول ألمانية: (ربما كان مفهوم العقل التقني ذاته إيديولوجيا. وليس استخدام التقنية بدءا، إنما التقنية ذاتها سيطرةٌ على «الطبيعة وعلى الإنسان»، سيطرةٌ منهجية، علمية، محسوبة وحاسبة. وليست الأهداف المتعينة للسيطرة ومصالحها «لاحقة» وتملي إرادتها من خارج التقنية - بل تدخل في تكوين الآلة التقنية ذاتها؛ التقنية هي على الدوام مشروع اجتماعي- تاريخي، يُسقط فيها)[1].

بقي أن نشير إلى أنه حيثما وجدت قوة خشنة صلبة عسكرية وأمنية فثمة لا محالة قوة ناعمة مرنة، وخير دليل على ذلك أنه ما من مستجد تكنولوجي، في الغالب الأعم من الأحوال، يبشَّر بولادته، إلا وكانت المؤسسة العسكرية من ورائه، وخير شاهد على ذلك أنه لا يخول لمستجد تكنولوجي أن يُستخدم ويوظف في الميدان العام، إلا بعد أن تدشنه المؤسسة العسكرية وتؤمنه، بل وتطمئن على امتلاك ناصيته والتحكم في أدواره[2]. ومن الآثار السلبية التي يمكن استخلاصها والتنبه إليها جراء انصهار الإيديولوجيا بالأداة التكنولوجية تكريس ما يمكن نعته بـ «إيديولوجيا الوهم» عن طريق السماح لهذه التكنولوجيا بالخروج عن حدودها الجغرافية التي وُلدت في أحشائها، وتعميمها من ثم على باقي دول وشعوب المعمورة.

---

(١) هابرماس، يورغن: **العلم والتقنية كـ «إيديولوجيا»**. (مرجع سابق) ( ص ٤٤-٤٥ )

(٢) اليحياوي، يحيى: **في الإعلام والسياسة والأخلاق**. (مرجع سابق) (بتصرف عن ص ٨٥).

الحصيلة من هذا كله، أن التكنولوجيا بشقيها العسكري والمدني صارت بامتياز أداة مطواعة لإيديولوجيا الاختراق، اختراق نظم وقيم وهويات وثقافات شعوب الأرض كلها. إنها أسلوب جديد من أساليب الاستعمار إن لم نقل الاستعباد الذي لا يراهن على أسلحة ولا عتاد ولا مدمرات ولا مقاتلات.. إنه يراهن على تسريب نمط فكري أحادي ينسف كل ما سواه من الخصوصيات الثقافية والتمثلات الحضارية لباقي الأمم والشعوب، ويأتي على الأخضر واليابس منها...

نستنتج من هذا أن إيديولوجيا الاختراق المرتكزة على القوة الناعمة أقوى وأعنف وأخبث في أساليبها من باقي الإيديولوجيات السابقة، لأنها تعتمد أسلوبا خفيا متسترا مُقنَّعا لا يمكننا استشعار خطره إلا بعد فوات الأوان؛ عكس أساليب الإيديولوجيات الأخرى التي كانت تعول على القوة الخشنة أو الصلبة التي نكون إزاءها أمام عدو مباشر واضح غير خفي. إننا أمام استعمار جديد يتجاوز حدود الغزو والاستلاب، ليبلغ درجة الاختراق إن لم نقل درجة الاغتصاب. إنها العولمة البغيضة التي لا تقنع باحتلال أجزاء محدودة من الكرة الأرضية، بل تريدها ملكية مطلقة لها، وبمن فيها.

وأختم بهذه الآية الكريمة، يقول المولى تبارك وتعالى في محكم تنزله: «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (آل عمران/٢٦).